(٩)

ماذا فعلنا ببلادنا؟*

من شهور عرضوا علينا هنا رواية «هايدى» فى مسلسل تليفزيونى قدموه على حلقات بعد الظهر، وهايدى من أمتع القصص التى يقرؤها الانسان فى اللغة الألمانية ومؤلفتها يوهانا شبيرى سويسرية وبطلة القصة طفلة هى هايدى أو أولهايد ولكن الرواية ليست من روايات الأطفال إنها رواية كل إنسان، والأطفال يستمتعون بها كما يستمتع بها الكبار، وأنا قرأتها وأنا أتعلم اللغة الألمانية لأنها من تلك القصص الانسانية الجميلة التى تغزو القلب ببساطتها وعمقها غير المتكلف، وأذكر أننى كنت أقرؤها فى مكتبة سمينار قسم اللغة الانجليزية بجامعة زيوريخ. وكانوا قد انتخبونى سكرتير جمعية قسم اللغة الانجليزية لامتيازى على غيرى بل لأننى كنت الطالب الوحيد الذى لم تكن له عائلة فى زيوريخ، فكنت أستطيع أن أقضى فى المكتبة اليوم كله. فلا أتغيب إلا لحضور الدروس.

فكان رواد المكتبة يجدوننى فى كل وقت من التاسعة صباحاً إلى الثالثة بعد الظهر وكانت مكتبة متوسطة الحجم دافئة هادئة وأحياناً كانت تمر ساعات دون أن يأتى طالب واحد أو طالبة.

وكنت يوميا أقرأ رواية هايدى بعد الظهر عندما دخلت طالبة لطيفة جدا وطلبت إحدى روايات توماس هاردى فأتيتها بها ثم لاحظت أننى أقرأ هايدى فأشرق وجهها وقالت: تلك هى روايتى المفضلة وأنا صغيرة كنت أقرأها لجدتى وتعطينى قرشاً فى كل مرة قلت.

– أنا مستعد أن أدفع القرش (وهو فى السويسرية رابن – بكسر الباء الثقيلة وتشديدها، وهو جزء على مائة من الفرنك). قالت:

---

* نشرت هذه المقالة فى ديسمبر ١٩٨٧م .

– إذن تأتى معى إلى البيت الآن. أن والدتى تنتظرنى وربما قدمنا إليك الشاى والبسكويت دع الرواية هنا فهى عندى فى البيت.

وأغلقت المكتبة فقد تخطت الساعة الثالثة ومضيت معها فى الطريق، – نظرت إلى بعينين زرقاوين وقالت:

قل لى ما هو الفرق الأساسى بين مصر وسويسرا فى نظرك؟

قلت: سأذكر لك فرقين أساسيين الأول أنكم ناس منظمون جدا والناس لا يحبون هذا النظام الدقيق جدا.

قالت: لايهم.. أنا أيضا لا أحب هذا النظام الدقيق.. إن الحياة تفقد معه طعمها.. ثم قالت والفرق الثانى؟

– الفرق الثانى هو هذا الذى نحن فيه: فمن المستحيل فى مصر أن تدعو فتاة مثلك رجلا مثلى إلى بيتها لتقرأ له كتابا..

– لماذا؟

– لأنهم يخافون على المرأة من الرجل! إنهم يعتقدون أن الرجل والمرأة إذا اجتمعا فلا يمكن أن يكون للقراءة فقط.

– لا أفهم.

– بل تفهمين يا.. ما اسمك؟

– كارلا.. كيف لا تعرف اسمى وأنا آتيك فى المكتبة كل يوم.. اسمى كارلا شترودل.

إن الناس عندنا يقولون إن الرجل والمرأة إذا اجتمعا فلابد أن يكون الشيطان ثالثهما.

– وماذا يفعل الشيطان هنا؟؟

– أنا شخصيا لا أدرى ولكن الناس عندنا يخافون على نسائهم من الشيطان..

– وأنت؟

– أنا أعتقد أن الشيطان هو الانسان نفسه.. الإنسان بحسب ما يريد.. وأنا شخصيا لم أشعر قط بالرغبة فى أن أكون شيطانا مع بنت مثلك لا يمكن أن يكون الانسان معها الا ملاكا..

فسكتت لحظات ثم عادت تقول: عندنا أيضا رجال مثل الذين عندكم. ولكنهم لا يخافون على المرأة بل يطمعون فيها.

وفى بيتهم الجميل استقبلتنا الام دون ارتياح أول الأمر ولكنها اضطرت إلى المجاملة وقالت كارلا:

– سأقرأ له فى هايدى هل نستطيع أن نشرب الشاى؟ وهل عندنا بسكويت؟

– الشاى تعمليه أنت وليس عندنا بسكويت.

وأحسست بالبرد يسرى فى جسدى ونهضت كارلا لتأتى بالكتاب وعادت به وجعلت تقرأ كان صوتها جميلا جدا ونغماتها حلوة، وكنا فى الجزء الثانى من الرواية عندما عادت هايدى من فرانكفورت إلى باد راجاتس فى قلب جبال الألب وصعدت الجبل إلى قرية شفندى ومنها إلى بيت جدها وسط الثلوج، ويبدو أن أم كارلا استحت من سوء مقابلتى لأنها أتتنا بالشاى وتلطفت معى وبعد قليل أتتنا بقطعتين من الكيك وقالت كارلا لأمها:

– أتعرفين يا أمى.. أنهم فى مصر يخشون على النساء من الرجال؟

– عندهم حق.. الرجال ملاعيين.

– والنساء؟.

– ملعونات أيضاً والحرص واجب.. وفى قرية صغيرة غير بعيدة عن زيوريخ اعتدى مدرس على تلميذته والتلميذة حملت والحكاية كانت فى الصحف.

وعدنا إلى القراءة وبعد نحو عشر دقائق قلت:

يكفى هذا اليوم يا كارلا.

وقالت الأم: هذا أحسن.. الساعة الان بعد الخامسة وبعد قليل يأتى أبوك ولا يسره أن يجد هذا الشاب هنا..

ونهضت وسلمت على الأم واتجهت إلى الباب ورافقتنى كارلا إلى الباب وقالت:

– لا عليك من أمى.. أنها تخاف على وأبى يخاف عليها وعلىّ.

– امك على حق وكذلك أبوك، أنت جميلة وأمك جميلة والحذر واجب.. غدا أعطيك خمسة قروش لا قرشاً واحداً..

– بعد أن سممنا بدنك؟

– خذى بالك من نفسك يا كارلا أمك على حق وأمثال المدرس الذى ذكرته أمك كثيرون وأنت بنت حلوة ومثلك ينبغى أن تحذر الشيطان.

– تقصد أننى لا أستطيع الاطمئنان إليك؟

– لا إلىّ ولا إلى غيرى.

– وهل أنا حلوة حقاً؟

– حلوة جداً.. والآن لابد أن أسرع بالذهاب، أبوك لابد على وشك المجئ.

ومضيت وأنا أفكر هل نحن على حق؟ هل بالفعل اذا اجتمع رجل وامرأة كان الشيطان ثالثهما ربما ولكن الحياة تكون مريرة جداً اذا استحال

على رجال مثلى أن يجلس إلى بنت فى بيتها وأمها هناك ليقرأ كتابا هذا يجعل حياتنا فى مصر مظلمة وحزينة. حقا أن الحذر واجب ولكن الحذر أكثر من الواجب عذاب، البرقع والملاية سخف فهما فعلا لن يحولا دون أى شر اذا أرادت المرأة وما أكثر ما تريد. والمشربية ظلم والمرأة الحبيسة تقع فى الخطيئة بفكرها خلف المشربية، وأذكر أننا روعنا ذات ليلة عندما وجدنا طفلا حديث الولادة إلى جانب الحائط قرب البيت، كلنا عرفنا فيما بعد أن هذا الطفل أنجبته خادمة من الابن الأكبر للأسرة وهذا الطفل تبنته أخت الشاب وكانت لا تنجب أما الخادمة فقد اختفت، يقولون إن الأسرة قتلتها خنقوها، وأبوها رفض أن يتسلم الجثة وضابط الشرطة رأى بنصيحة رؤسائه أن يحفظ القضية كلها صيانة للأسرة.

على العشاء وكنت وحدى فى مطعم صغير عدت إلى التفكير فى قصة هايدى، إنها طفلة يتيمة من أهل قرية صغيرة جدا حوالى ستين نسمة من قرية شفندى فوق باد راجاتس، إنها يتيمة مات أبوها وأمها ولكنك لا تشعر قط أنها يتيمة، هنا فى ذلك المجتمع السويسرى فى قلب جبال الألب تتبنى الجماعة كلها مثل هذه الطفلة لفظ اليتيم «فايزن كيند» أو فايرة لا يجئ مرة واحدة فى القصة إنها جماعة سلمية جدا تعيش فى اعالى الجبال بين الثلوج، إنهم فى غاية النظافة والطهارة وحياتهم فقيرة ولكنك لا تشعر أنهم فقراء إنهم قنوعون بما لديهم ولا وجود للجشع عندهم، أولادهم يتعلمون فى المدارس والصالحون منهم للتعليم الثانوى أو العالى يهبطون إلى بلدة كور عاصمة الجراونبدن عندما يتقدمون إلى المدرسة يذكرون حالتهم المالية بكل صراحة والمصاريف تقدر بحسب كلامهم هنا لا فرق بين التعليم الحرفى والتعليم الثانوى والجامعة ليست الأمل الأكبر لكل الناس، لن الحرفى مثل النجار والميكانيكى والسباك يكسب قدر ما يكسبه الطبيب أو المهندس. كل إنسان يأخذ حقه لأن كل انسان يتقن عمله. الميكانيكى يمر فى أكثر من عشرة امتحانات حتى يؤذن له فى أن

يعمل فى جراج محترم أو يفتتح جراجا هنا يكون قد وصل إلى مستوى المهندس فعلا عقليا وحرفيا وماليا، ولكنهم لا يلقبونه بالمهندس أو الباشمهندس لأن ذلك لا يعنى شيئا لا أحد هنا يعرف الفقر أو لا يرضى به. جامع الزبالة هنا ليس انسانا جاهلا أو قذرا أو أميا. إنه يتقاضى اليوم ما بين ١٥٠٠ و٢٠٠٠ فرنك فى الشهر ويلبس القفاز ولا يمس القمامة بيده وهو يدير ماكينة «الفرم» فى حافلة الزبالة وكل شىء يتم بهدوء ونظام ودون ضوضاء، وجامع الزبالة ليس فقيرا أنه يسكن شقة محترمة وامرأته سيدة محترمة وأولاده فى المدرسة.

نحن فى بلادنا ننهب مال اليتيم رغم أن القرآن أوصى به مرة بعد أخرى ونبينا الكريم صلى الله عليه وسلم كان يتيما ولكنه لم يشعر طوال طفولته أو صبوته أنه فقير. تبنته أسرته وتولاه جده دون تكلف لأن العرب لم يعرفوا إلى ذلك الحين الفقر أو الظلم أو النهب.

ولكننا عرفنا ذلك بعد الإسلام، لأن نظم الحكم التى عرفناها علمتنا الظلم والقسوة والسرقة، لأن الحاكم الأعلى كان ظالما وقاسيا ولصا، والمصيبة عندنا تأتى دائما من أعلى وعندما يكون السلطان لصا تنتقل السرقة على السلم كله. والوصى على أموال الايتام يشترى الوصاية من السلطان وينهب مال اليتيم أو ينهب باسم اليتيم وأبو المحاسن فى النجوم الزاهر وابن إياس فى بدائع الزهور يعطياننا مئات الأمثلة من اللصوص الأوصياء على الأيتام رغم ضخامة العمامة، وأنا شخصيا عملت مدرسا لأولاد سيدة كانت تسرق مال أولادها. الدرس أتعابه فى الشهر ثلاثة جنيها، ولكنها أرادتنى أن أوقع على إيصال بخمسة جنيها، وكانت تقول: ألم تأخذ نقودك؟ إذن فوقع! هذه الايصالات للمجلس الحسبى! لم ادرس هناك الا ذلك الشهر. عرفت بعد ذلك أن زوج هذه السيدة كان يضربها من هنا تعلمت السرقة والظلم وهى تسرق أموال أولادها دون أن تشعر.

فى قرية شفيندى لا يعرفون ذلك لأن الحكومة فى برن ليست حكومة لصوص. إنهم ناس أشراف يحترمون الشعب والأخلاق. وهايدى لها جد يعيش وحده بعيدا فوق القرية. إنه رجل ممرور من الحياة ولهذا فهو يعيش وحده فى كوخ على بعد كيلو متر من القرية. هايدى هى أجمل شىء فى حياته.. إنه يحبها والبنت الصغيرة تحبه ولا تريد فراقه.

ولكن أهل القرية لا يحبون هذا الرجل لأنه انسان منعزل. يقولون أنه فى شبابه أيام كان يعيش فى الدنيا مع الناس ويكافح فى سبيل العيش يقولون إنه قتل رجلا، ولم تثبت عليه التهمة فبرأوه. هذا فى رأى أهل القرية سبب اعتزاله للدنيا ولكن هذا الرجل رجل طيب جدا. ولكن هذه الطيبة لا تمنع من القتل، لأن الذين يقتلون ليسوا غير الطيبين فقط لأن القتل – بالنسبة لأى انسان عمل غير عادى – يتم فى ظروف يكون الانسان فيها خارج نفسه، خارج انسانيته. والقتل يتم فى الغالب فى لحظة غيظ وهو يتم فى لحظة والقاتل نفسه لا يدرى فى معظم الأحوال كيف قتل هذا لا ينطبق طبعا على حالات التدبير والتربص لأسباب يعرفها القاتل جيدا مسألة القتل للثأر أو للانتقام للشرف أو للاستيلاء على الأموال هذه حالات تخرج عما نحن فيه لأننا نتكلم عن القتل الذى يقوم به رجل طيب أو غير طيب.. فى ظروف يخرج فيها عن سيطرة نفسه. بعد القتل مباشرة يبدأ الندم. وقد يكون جد هايدى قد قتل كما يزعم الناس، ولكنه على أى حال يكفر عن جريمته بهذه العزلة التى يعيش فيها فى أعلى الجبل فى منطقة يدوم الشتاء والثلوج فيها عشرة شهور فى العام. لا يمكن أن يكون هناك سجن أقسى من هذا.

هذا الرجل يعمل بيديه كل شىء لنفسه.. إنه نجار وحداد وخباز وصانع جبن.. وكل شىء يعمله باتقان بعض الأشياء يصنعها ليبيعها ليشترى بثمنها الأشياء القليلة التى يحتاج إليها ولا يستطيع إنتاجها مثل الدقيق. فهنا لا ينبت القمح، والرجل يشتريه من القرية ويخبزه هنا.

هايدى سعيدة جدا مع هذا الجد. إنه يعمل لها كل شىء وخاصة الطعام الذى يصنعه بنفسه اللحم هنا لحم خنزير، فهذا الرجل يشترى خنزيرا واحدا فى العام ويقطع لحمه شرائح ويحفظها فى الثلج إنه لحم مدخن. عند هذا الجد اعناز كثيرة يرعاها له ابن أخت له فقير يسميه بيتر. هذا الولد لطيف جدا وقوى جدا، والجد لا يستطيع أن يذبح عنزة واحدة لأنها اشبه بأفراد عائلته وهو يحبها إنها عنزات جميلة وسمينة لأنها تعيش فى منطقة باردة لا تدخلها الأمراض، والعنزة الواحدة تعطى لترين من اللبن فى اليوم. إنها أعناز أليفة جدا لا تشبه فى شئ أعنازنا الهزيلة التى تشقى النهار كله لكى تملأ ربع بطنها بطعام لا يسمن.

أنا شخصيا عرفت هذه القرية عندما زرت مدينة كور لأحضر برنامجا فى اللغة الألمانية صعدت إلى شفيندى ومافوقها من بلاد الجبل لابد أن تكون إنسانا من حديد لتعيش هناك كنت هناك فى شهر أغسطس ودرجة الحرارة لم تزد على ست درجات. هذا يسمونه جوا حارا والأولاد يسيرون حفاة، أما أنا فقد كنت أرتعد ولكنى شعرت أن دمى كله يتجدد ولم أحس فى حياتى بصحة عينى كما أحسست فى ذلك اليوم.

ولكن أهل القرية غير سعداء لأن هايدى مع جدها لا تذهب إلى المدرسة. القانون هناك يحتم دخول الأولاد المدرسة والناس هنا ينفذون القانون. الجد غير مرتاح لفكرة المدرسة لأن هايدى اذا دخلت المدرسة كان عليه أن يهبط إلى القرية لتكون البنت إلى جوار مدرستها.

ولكن خالة لهايدى تعثر على حل لمسألة تعليم هايدى. فقد عرفت أن أسرة المانية عنية فى فرانكفورت تبحث عن رفيقة لابنتها الطفلة كلارا التى تعيش على كرسى بعجلات فقد أصيبت بشلل الأطفال، اتصلت بالأسرة والأسرة قبلت هايدى والخالة صعدت وأخذت البنت على رغمها. لم يقاوم الجد لأن هايدى فعلا لابد أن تتعلم ولكن قلبه اعتصر اعتصارا وهو يرى البنت تمضى مع خالتها، لقد تعلق بهذه البنت وأصبح يعيش

لها. الآن لم يعد لحياته هدف. تحمل الرجل الصدمة وطلب إلى هايدى أن تكتب لـه عندمـا تتعلم الكتابـة، لا أحـد هنـا يبكـى للفـراق لأن الحـزن الحقيقى لا يعرف الدمـوع ونحـن نبـكى ليـل نهار لنغسل أحزاننا فنحن لا نحتمل الاحزان.

فى فرانكفورت لا تجد هايدى عند عائلة الرجل الموسر اسـتقبالا حـارا لأنهم رأوا فيها قرويـة حافيـة لا تحسـن الأكـل علـى المـائدة ولا تحسـن استعمال الشوكة والسكين وأسـوأ مـن ذلـك أنـها لا تقـرأ ولا تكتـب أكـثر الناس تطورا منها كانت الآنسة دوتماير ربة البيت ومربية كالارا إنها تنفر من هايدى ولا تريدها فى البيت.

ولكـن كـلارا أحبـت هـايدى وأنسـت إليـها وأصبحتـا ل تفترقـان . وهايدى تعلمت القراءة والكتابة على يدى مدرس كلارا ولأن كلارا أحبـت هايدى فقد أحبها أبوها وهو رجل ممتاز حقا وقد وجد هايدى شيئا طريفا وقد عطف عليها عطفا كبيرا ورجا الفراولاين دوتماير أن تحسن معاملتـها وكل من فى البيت أحب هايدى .

ولكن صحة هايدى اعتلت. جو المدينـة لم يناسبها وهـى ابنـة الجبـل التى اعتادت الهواء الصافى والثلوج الطاهرة والطعام القليل. إن معدتها لا تحتمل ثلاث وجبات فى اليوم. وطال مرض هـايدى وخـاف عليـها والـد كلارا والطبيب نصح بعودتها إلى جدها فإن صحتها فى حياة الجبـل فـى الثلوج فى الطعام القليل فى الجرى واللعب فى الثلج مع بيتر ومع الاعناز.

وتعود هايدى إلى الجبل بأمر والد كلارا فى الصيـف تذهـب كـلارا إلى هايدى على الجبل وتنام معها فى الفراش الخشن فى بيت الجد.

بعد شهر تشعر كلارا بأن رجليها أحسن لقد بدأ هـواء الجبـل يشـفيها كما شفى هايدى كلارا تقف الآن على قدميها وهايدى تعلمها المشى إنـها تمشى الآن ببطء ولكنها تمشى والولد بيتر الذى كان يغار منها لن هـايدى

تحبها أكثر مما تحبه يلقى بكرسيها ذى العجلات من أعلى الجبل. الطبيب يأتى الآن ويكشف على كلارا ويقول إنها لم تعد تحتاج إلى كرسى فى أواخر الصيف تعود كلارا إلى فرانكفورت وقد شفيت والطبيب أحب هايدى كان قد فقد ابنة له وهايدى الآن تحتل مكانها، ويتحدث إلى جدها ويقول له أنه يريد أن يتنباها ويكتب لها كل أملاكه هنا يرتاح قلب الجد فقد اطمأن على مصير هايدى هذا الرجل كان مريضا بقلبه ولكن حب هايدى وخوفه عليها أمسكه فى الحياة.

قصة جميلة كلها إنسانية أجمل ما فيها أنك تعيش فيها مع ناس أحرار ناس يعرفون واجبهم ويحترم بعضهم بعضا إنهم لا يظلمون لأن أحدا لا يظلمهم والحكومة فى سويسرا هى الناس، لهذا تجد سويسرا أرقى دول العالم، عندما تذكر أننا منذ وعينا لم نعرف إلا حكومات ظالمة تفهم لماذا نحن ظالمون، نحن نظلم أنفسنا وغيرنا، لأننا عشنا فى ظلم وكل ما نعانيه إنما هو من صنع أيدينا نحن يسرق بعضنا بعضا لأن أحاسسنا ببشاعة السرقة مات من زمن إن كان لك ابن فأرجو أن تربيه على العدل. العدالة أساس كل سعادة لا تنس ذلك. لا تنس أن أول درس علمناه إياه رسولنا هو العدل وهو نفسه كان مثالا للعدل.